بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ابن قتيبة هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، ذلك العالم الموسوعي الذي صنف في مجالات عديدة من بينها غريب القرآن والحديث وصنف في الفقه وكذلك صنف في اللغة والأدب والتاريخ وصفه ابن كثير بأنه "صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة " (١) ، وكان أهل المغرب يعظمونه ، ويقولون :من استجاز الوقيعة في ابن قتية يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه فلا خير فيه ... وهو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فإنه خطيب السنة كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة " (٢) ، ورغم أنه من أصل فارسي إلا أن له باعًا طويلاً في الدفاع عن العرب ضد الشعوبية (٣). ولد " ببغداد، وقيل بالكوفة، وأقام بالدِّينورِ مدةً قاضياً فنسب إليها.وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتوفي في ذي القعدة سنة سبعين، وقيل سنة إحدى وسبعين، وقيل أول ليلة في رجب، وقيل منتصف رجب سنة ست وسبعين ومائتين، والأخير أصح الأقوال" (٤) ، وإنما يقال له الدينوري لأنه تولى منصب القضاء في الدينور ونسب إليها وسكن بغداد شطرا من حياته ، ذكر ابن النديم له ثلاثة وثلاثين كتابا منها

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ١٩٨٨ ، ج١١ ،ص٥٦ .

(٢) ابن تيمية : مجموع فتاوى ابن تيمية مكة :مطبعة الحكومة ١٣٨٩ج١٧ص٣٩٢،٣٩١ .

(٣) انظر محمد كرد على : رسائل البلغاء ، القاهرة : دار الكتب العربية الكبرى ١٩١٣ (رسالة ابن قتيبية في الرد على الشعوبية) ،ص ٢٦٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بيروت : دار صادر ،ج٣ ،ص٤٣ .

عيون الأخبار ، معاني الشعر ، أدب الكاتب ، إعراب القرآن،الشعر والشعراء ، دلائل النبوة [١]

ويعد كتابه الشعر والشعراء من أهم الكتب النقدية والأدبية ،وصفه الأستاذ السيد أحمد صقر بأنه"، كتاب من أرفع كتب الأدب قدرًا، وأنبهها ذكرًا، وأقدمها نشرًا "[٢] .

وقد قسمه ابن قتيبة قسمين جعل القسم الأول لآرائه التنظرية النقدية المتنوعة في الشعر أو كما يقول عن" أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك، [٣] ، أما الجزء الثاني فقد تحدث فيه عن " الشعراء وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم . ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم .وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون " . [٤]

والقسم الأول من الكتاب يعكس الجانب النقدي في أفق ابن قتيبة الواسع ، فقد عرض فيه للعديد من القضايا التي كانت مثار جدل في عصره ، وأظهر خلال ذلك رؤيته الخاصة التي كشفت عن شخصية نقدية مستقلة لها قدرتها على الدراسة والتمعن والتحليل والاستنتاج ، وقد تعرض دارسو تاريخنا النقدي لآراء ابن قتيبة التي عرضها في كتاب الشعر والشعراء ، لكن الحقيقة أن بعضهم في دراستهم لتاريخنا الأدبي والنقدي كانوا يقيسونه بمقياس بعض المدارس الأوربية الحديثة

(١) انظر ابن النديم : الفهرست ، بيروت :دار المعرفة ١٩٩٧،ص١٠٥ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، القاهرة : دار الحديث ١٤٢٣ ،ج١ ص٧.

(٣) السابق : ج١ ، ص٦١.

(٤) السابق : ج١ ،ص٦١.

التي تأثروا بها سواء بشكل مباشر عبر دراستهم في أوربا ، أو بشكل غير مباشر عبر تلمذتهم للنقاد الذين درسوا هناك ، أو قراءتهم للكتابات الغربية ، فجاءت رؤيتهم انعكاسًا ملاحظا لهذا التأثر ، وهذا لا يمنع أنهم كانت لهم لمحات نقدية في غاية الأهمية ، وكان منهم الموضوعي الذي يتسم بالدقة في التحليل والعرض والحكم ، لكنه أيضًا ظهر من بعضهم تجن ملحوظ وصل إلى درجة إنكار القيم النقدية لرؤى بعض نقادنا القدامى والاستهانة بما قدموه لثقافتنا العربية ، وهذا البحث هو عرض لرأي بعض نقادنا في الآراء التنظيرية لابن قتيبة ومناقشة لهذه الآراء .

الرؤية الموضوعية في الأحكام النقدية عند ابن قتيبة

بين ابن قتيبة أن أحكامه النقدية إنما تعتمد على رؤية النص دون النظر إلى الشاعر وزمانه كما كان يفعل بعض النقاد فيتعصبون للقديم ،يقول :

" ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلاً حظه، ووفرت عليه حقه. فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره وكل شرف خارجية(*) في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث

(*) الخَارِجِيُّ: الَّذِي يَخْرُجُ ويَشْرُف بِنَفسِهِ، من غير أَن يكون لَهُ قديمٌ ... وَقَالَ الليثُ: الخارِجيَّة من الخَيلِ: الَّتِي لَيْسَ لَهَا عِرْق فِي الجَودة، فَتَخْرُجَ سَوابِقَ. (أبو منصور الأزهري : تهذيب اللغة ،ج٧ ص٢٧ بيروت : دار إحياء التراث٢٠٠١)

وحسن، حتى لقد هممت بروايته، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد عنهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هانئ وأشباههم. فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه. ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله أو حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه " .[١]

وهو في هذه الرؤية يتفق مع الجاحظ ، ولذلك يقول الدكتور إحسان عباس إن الناقدين الجاحظ وابن قتيبة " يشتركان في المذهب التوفيقي الذي يريد أن يجعل الجودة مقياسًا للشعر دون اعتبار للقدم والحداثة " [٢] ، وبعض النقاد الذين أعجبوا بموقف ابن قتيبة عزوا تلك الرؤية لكونه قاضيا اعتاد أن يتحرى العدل ، يقول الدكتور محمد زغلول سلام : " هذا الموقف قد أملاه عليه أمران : كونه قاضيا ، وكونه بغداديا في القرن الثالث تأثر دون شك بما حظي به المحدثون من مكانة عظيمة في دار السلام" [٣] ، والحقيقة أن الجاحظ لم يكن قاضيا وقد سبق ابن قتيبة إلى هذه الرؤية ، وفي عصر ابن قتيبة كان هناك علماء في بغداد لم يتخذوا نفس هذا الموقف ، لكن كان لتأثره بالجاحظ في العديد من المناحي . رغم نقده اللاذع له في كتابه تأويل مختلف الحديث . الدور الأكبر في تبني هذه الرؤية إضافة إلى ثقافة ابن قتيبة الموسوعية في المنطق والفلسفة والأدب قديمه وحديثه عربيه وفارسيه و إلى قدرته النقدية المتميزة ، لقد كان لكل هذه الأشياء أثرها في

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج١،ص٦٤.

(٢) د إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، بيروت : دار الثقافة ط٤ ١٩٨٣، ص ١٠٧ .

(٣) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ، الإسكندرية منشأة المعارف ١٩٨٢ ،ص ١٣٤،١٣٥ .

تشكيل الفكر النقدي عند ابن قتيبة .أما الدكتور مندور بنهجه الذوقي الذي استقاه من أستاذه الناقد الفرنسي جوستاف لانسون،[١] ورفضه للتصنع والتقليد وإيمانه بعدم قدرة الشعر العباسي على صناعة تيار إبداعي يتوافق مع الواقع ، يرى أن رؤية ابن قتيبة هنا لم تكن نابعة عن مقارنة بين الشعر القديم الفطري الذي يتسم بالبعد عن الصنعة والتكلف والشعر المحدث الذي اتسم بهما وأن رأي ابن قتيبة هذا كان نابعًا فقط عن ثورة صادرة عن نظرة فلسفية فنظرة ابن قتيبة هذه " لا تصح أمام الواقع كما يبصرنا تاريخ الأدب العربي ، وإنما كانت تصح لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم ، ولوأن نزعة ابن هانئ ومدرسته استطاعت أن تغلب فتنجو بالشعر عن التقليد ليظل حيا إنسانيا بعيدا عن الصنعة والتجويد الفني ، يقتصر عليهما جيده ، ويسقط الباقي في التصنع المعيب الفاسد ، فأما وقد انتصر مذهب القدماء ، فمن الواضح لكل ذي بصر بالشعر أن قديم الشعر العربي ـ أعني الشعر الجاهلي والأموي ـ خير من الشعر العباسي وما تلاه إلى يومنا هذا" [٢] ، وقد اعترض الدكتور محمد زغلول سلام على رأي الدكتور مندور ورأى فيه عيبين : أولهما التعميم " فلا يصح في منهج العلم أن يقال إن الشعر القديم جملة جاهليًا وأمويًا خير من الشعر الحديث جملة ، أو من الشعر العباسي كله طوال الأربعة قرون التي عاشها الشعر العباسي" [٣] لكن على الرغم من أننا يمكن أن نختلف مع الدكتور مندور إلا أن الحقيقة أن له نظرته التي ترى أن أجمل الشعر

(١) انظر فاروق العمراني :تطور النظرية النقدية عند محمد مندور، طرابلس ليبيا : الدار العربية للكتاب ١٩٨٨، ص٥١،٥٢.

(٢) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧،ص٢٤ .

(٣) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ص١٣٥.

ما يعتمد على الطبع والذوق ويبتعد عن الصنعة والتقليد، والمتتبع لكلام الدكتور مندور يرى أنه كان يعني غلبة التقليد والصنعة على الشعر العباسي بخلاف الشعر القديم النابع عن الفطرة وهو لم يعمم بدليل أنه يقول بعد ذلك :" وفي تاريخ الأدب العربي . كما قلنا . ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه ، وهو صدور القديم عن طبع وحياة وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن [١]فكلمة أغلب هنا تنفي التعميم المزعوم ، كما أن الدكتور مندور قال قبل ذلك عن نظرة ابن قتيبة : إنها كانت تصح " لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم ولو أن نزعة ابن هانئ استطاعت أن تغلب فتنجو بالشعر على التقليد ليظل حيا إنسانيا " [٢]فالذي يعيبه الدكتور مندور على أغلب الشعر المحدث هو التقليد وانتشار الصنعة ، وعدم صدوره عن الطبع والذوق ، كما فصل هو بعد ذلك في حديثه عن ابن المعتز ، وهذه نظرة نقدية من حق الناقد أن يتبناها ومن الصعب أن نعدها عيبا.أما العيب الثاني الذي يذكره الدكتور محمد زغلول سلام للدكتور مندور ، فهو " إهماله ذكر أساس للتفضيل ، على أي أساس يقوم حكمه ؟ ومن وجهة نظر الشعر ، باعتباره فنا إنسانيا عاما يعبر عن المشاعر الإنسانية ، ويصدق في التعبير عنها ، أم من وجهة نظر اللغويين التقليديين ، الذين يرون الشعر رصانة وجزالة وأساليب سليمة من الانحرافات ؟ " [٣] . والحقيقة أن الدكتور مندور لم يهمل ذلك بل قال صراحة "... ليظل حيا إنسانيا بعيدا عن الصنعة والتجويد الفني" [٤] ، ووجد أيضًا على ابن قتيبة . من وجهة نظره . عدم دعوته الشعراء " إلى

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص٢٤،٢٥ .

(٢) السابق : ص٢٤ .

(٣) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ص ١٣٥ ،١٣٦.

(٤) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص٢٤.

الصدور عن طبعهم وملابسات حياتهم " [١] ، فمن الواضح أن الدكتور مندور كان يريد من العباسيين أن يكتبوا ما يعبر عن حياتهم وبما أن مذهب القدماء هو الذي انتصر ، تصبح هنا المقارنة بين الأصل والتقليد ، ومن هذه المقدمة يصل الدكتور إلى أن الأصل الصادر عن الطبع هو الذي تكون له الغلبة .

جاء ابن قتيبة بعد ذلك بما أصاب النقاد في عصرنا الحديث بالحيرة ، فبعد أن بين أنه لا ينحاز للقديم لقدمه ولم يسلك سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره نراه يقول :" وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر ، أو يبكي عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافى. أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأنّ المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير. أو يرد على المياه العذاب الجوارى، لأنّ المتقدّمين وردوا على الأواجن الطّوامى. أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأنّ المتقدّمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة" [٢].وبينما رأى البعض أن هناك تناقضا في موقف ابن قتيبة ورآه البعض ناقدا اتباعيا تقليديا ، حاول البعض أن يفسر ويحلل قول ابن قتيبة ، فقد رأى الأستاذ طه أحمد إبراهيم أن ابن قتيبة " وقف موقفا وسطا بين القدماء والمحدثين من حيث بلاغة القول ووجودها عند هؤلاء وهولاء ، فقد مال إلى القدماء من حيث طريقتهم ونهجهم في القصيدة وجارى كثيرا من العلماء واللغويين في أن هذه الأصول القديمة يجب ألا تمس في جوهرها " [٣] ولعل الدكتور محمد غنيمي هلال كان أكثر تحديدا ووضوحا حيث يرى أن ابن

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص٢٥.

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ج١ ،ص٧٧.

(٣) طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عن العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري ، مكة المكرمة : الفيصلية ، ص١٥٨ .

قتيبة نظر إلى النص من جانبين : جانب من حق الشاعر أن يبدع فيه كما يشاء وهو جانب الألفاظ والمعاني وجانب آخر ليس من حقه فيه سوى أن يجاري القدماء ولا يخرج عن نهجهم وهو جانب الأغراض فابن قتيبة " يقصد إلى المساواة في الحكم على الشعراء ، فقد ينبغ متأخر في غرض من أغراض الشعر القديمة فيساوي المتقدمين أو يسبقهم ، ولكن ابن قتيبة شأنه في ذلك شأن نقاد العرب . يرى أن على المتأخر الاقتداء بالمتقدم في أغراض الشعر العامة وقوالبه في القصيدة ، وله أن يجدد بعد ذلك في اختيار الألفاظ وفي المعاني" [١] . لكن الحقيقة أن ابن قتيبة لم يتحدث عن الأغراض جميعها ولم ينتقد وجود أغراض جديدة ، وإنما انتقد تعمد مخالفة القوالب القديمة في نهج نفس الغرض. أما الدكتور إحسان عباس فيرى في قول ابن قتيبة هذا رأيا مختلفا تماما ، فهو ينأى بابن قتيبة عن الاتباعية ، بل يستخلص من قوله ما يجعله مجددا محرما للتقليد ؛ فيقول معلقا على كلام ابن قتيبة " فليس ثمة أوضح منه في الدلالة على تحريم التقليد الشكلي المضحك ، وإحلال مواد الحضارة محل مواد البداوة في الشعر . ومن ذا الذي ينكر أن استعمال الحصان أو الحمار بدل الجمل وذكر الأجاص والتفاح بدل الشيح والعرار لا يكون تقليدا مستهجنا مضحكا ؟ للشاعر أن يجدد بما يناسب عصره .... وكأن ابن قتيبة يومئ من طرف خفي إلى أن أبا نواس لم يصنع شيئًا فنيًّا في دعوته " [٢]، إذن فابن قتيبة لم يأمر الشعراء أن يسيروا على نهج القدماء كما يفهم من ظاهر كلامه ، وكما رأى أكثر النقاد وعدوه تناقضًا منه ، كما لم يرد منهم أن يجددوا تجديدًا شكليًّا كما فعل أبو نواس ، بل أراد لهم أن يعبروا عن ذواتهم وحياتهم بعيدا عن الماضي بكل تقاليده الفنية التي كانت تناسب عصرها ، و هذا

(١) د. محمد عنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، القاهرة : نهضة مصر ١٩٩٧ص١٦٧.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص١١٣.

الرأي هو نفسه رأي الدكتور مندور إلا أنه كانت له إضافة وتعليق على رأي ابن قتيبة ، فهو يقول : " وإن كنا نسلم معه بأن البكاء على الأطلال واستيفاء الصحب وذكر مشقات السفر موضوعات شعرية بطبيعتها وبخاصة إذا اتصلت بحياة القائلين لها كما نسلم بأنه من السخف أن يحاول المحدثون تجديد ديباجة شعرهم ومدخل قصائدهم باستبدال المنزل العامر بالدمن والبكاء عند الرسم الدارس بالبكاء عند مشيد البينان ..إلخ . نقول مع أننا نسلم له بكل ذلك إلا أننا لا نرى ما يمنع من أن يبدأ الشعراء مدائحهم بوصف القصور كما فعل أشجع السلمي . مثلا . عندما أتى الرشيد مادحًا في قصر له بالرقة فقال :

قصـــر عليـــه تحيـــة وســـلام ألقـــت عليـــه جمالهـــا الأيـــام

قصـر سـقوف المـزن دون سـقوفه فيـه لأعـلام الهـدى أعـلام " [1]

فالمهم عند الدكتور مندور أن يخرج الأمر عن مسار التقليد والاتباع وأن يكون تعبيرًا صادقا عن الحياة الحقيقية الحياة التي يعيشها الشاعر بكل جوانبها .

أضرب الشعر

حاول ابن قتيبة أن يوازن بين اللفظ والمعنى ولا ينحاز لأحدهما كما فعل الجاحظ ،فقسم الشعر إلى أربعة أضرب ومثل لها :

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص٢٥.

١. ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول القائل فى بعض بنى أميّة :

فـــي كَفِّـــهِ خَيْـــزُرَانٌ رِيحُـــهُ عَبِـــقٌ مِـنْ كَـفِّ أَرْوَعَ فـي عِرْنِينِـهِ شـمَمُ

يغْضِـى حَيَـاءً ويُغْضَـى مِـنْ مَهَابَتِـهِ فَمَـــا يُكلَّـــمُ إلَّا حِـــينَ يَبْتَسِـــمُ

لم يقل فى الهيبة شىء أحسن منه.

وكقول أوس بن حجر :

أيَّتُهَـــا الـــنَّفْسُ أَجْمِلِـــى جَزَعَـــا إنَّ الَّـــذِي تَحْـــذرِينَ قَـــدْ وَقَعَـــا

لم يبتدىء أحد مرثية بأحسن من هذا.

وكقول أبى ذؤيب .

والَّـــــنْفُس رَاغِبَـــــةٌ إذَا رَغَّبْتَهَـــــا وإذَا تُـــرَد إلَـــى قَلِيـــلٍ تَقْنَـــعُ

حدثنا الرّياشىّ عن الأصمعىّ، قال: هذا أبدع بيت قاله العرب.

وكقول حميد بن ثور :

أَرَى بَصَـرِي قَـدْ رَابَنِـي بَعْـدَ صِـحَّةٍ وحَسْـبُكَ دَاءً أَنْ تَصِـحَّ وتَسْـلَمَا

ولم يقل فى الكبر شىء أحسن منه.

وكقول النّابغة :

كِلِينِـــي لِهَـــمٍّ يَـــا أُمَيْمَـــةَ نَاصِـــبِ ولَيْـــلٍ أُقَاسِـــيهِ بَطِـــىءِ الكَوَاكِـــب

لم يبتدىء أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب.

ومثل هذا (فى الشعر) كثير، ليس للإطالة به فى هذا الموضع وجه، وستراه عند ذكرنا أخبار الشعراء.

ب- وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى، كقول القائل:

ولَمَّـا قَضَـيْنَا مِـنْ مِنًـى كُـلَّ حَـاجةٍ ومَسَّحَ بِالأَرْكـانِ مَنْ هُوَ مَـاسِحُ

وشُـدَّتْ علـى حُـدْبِ المَهَـارِى رحَالُنَـا ولا يَنْظُـرُ الغَـادِي الـذي هُـوَ رَائِـحُ

أَخَـذْنَا بِـأَطْرافِ الأَحَادِيـثِ بَيْنَنَـا وسَـالَتْ بِأَعْنَـاقِ المَطِـيِّ الأَبَـاطِحُ

هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيّام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث، وسارت المطي في الأبطح.

وهذا الصنف فى الشعر كثير.

ونحوه قول المعلوط :

إنَّ الـذين غَـدَوْا بُلُبِـكَ غـادَرُوا وَشَـلاً بِعَيْنِـكَ مَـا يَـزَالُ مَعِينَـا

غيَّضْـنَ مِـنْ عَبَـرَاتِهِنَّ وقُلْـنَ لـي مَـاذَا لَقِيـتَ مِـنَ الْهَـوَى ولَقِينَـا

ونحوه قول جرير:

يـا أُخْـتَ نَاجِيَـةَ السَّـلَامُ عَلَـيْكُمُ قَبْـلَ الرَّحِيـلِ وقَبْـلَ لَـوْمِ العُـذَّل

لـوْ كُنْـتُ أَعْلَـمُ أَنَّ آخِـرَ عَهْـدكُمْ يَـوْمُ الرَّحِيـل فَعَلْـتُ مـا لـم أَفْعَـل

وقوله :

بَـانَ الخلِـيطُ ولـوْ طُوِّعْـتُ مـا بَانَـا وقَطَعُـوا مِـنْ حِبَـالِ الوَصْـل أَقْرَانَـا

إنَّ العُيُـونَ التـي فـي طَرْفِهَـا مَـرَضٌ قَتَّلْنَـنَا ثُـمَّ لـم يُحيـينَ قَـتْلاَنَا

يَصْـرَعْنَ ذَا اللُّـبِّ حتـى لَا حَـرَاكَ بِـهِ وهُـنَّ أَضْـعَفُ خَلْـق اللهِ أَرْكانـا

ج- وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه، كقول لبيد بن ربيعة :

مـا عَاتَـبَ المَـرْءَ الْكَـريمَ كَنَفْسِـهِ والمَـرْءُ يُصْـلِحُهُ الجَلِـيسُ الصَّـالِحُ

هذا وإن كان جيّد المعنى والسبك فإنّه قليل الماء والرّونق.

وكقول النابغة (للنّعمان) :

خَطَـاطِيفُ حُجْـنٌ فـي حِبَـالٍ مَتِينَـةٍ تَمُـدُّ بِهَـا أَيْـدٍ إِلَيْـكَ نَـوَازِعُ

قال أبو محمد: رأيت علماءنا يستجيدون معناه، ولست أرى ألفاظه جيادا ولا مبينة لمعناه، لأنّه أراد: أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيف عقف يمد بها، وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف. وعلى أنى أيضا لست أرى المعنى جيدا .

وكقول الفرزدق:

والشَّـيْبُ يَـنْهَضُ فـي الشَّـبَاب كأَنَّـه لَيْـلٌ يَصِـيحُ بجَانِبَيْـهِ نَهَـارُ

د- ضرب منه تأخّر معناه وتأخّر لفظه

وضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى فى امرأة:

وفوهـا كأقـاحىّ غَـذَاهُ دَائِـمُ الهَطْـلِ

كمـا شِـيبَ بـرَاحٍ بَـا رِد مِـنْ عَسَـل النَّحْـل

وكقوله :

إنَّ مَحَـلاً وإنَّ مُـرْتَحَلا وإنَّ في السَّفْرِ ما مَضَى مَهَلا

اسْـتَأْثَرَ اللهُ بِالوَفَـاءِ وَبِـالْ حَمْـدِ وَوَلَّـى المَلَامَـةَ الـرَّجُلا

والأَرْضُ حَمَّالَـةٌ لمَـا حَمَّـلَ الَّلـ ـهُ وَمَـا إِنْ تَـرُدُّ مـا فَعَـلَا

يَوْمـاً تَرَاهَـا كَشِـبْهِ أَرْدِيَـةِ الْـ عَصْـب ويَوْمـاً أَدِيمُهَـا نَغِـلَا

وهذا الشعر منحول، ولا أعلم فيه شيئا يستحسن إلّا قوله:

يَـا خَيْـرَ مَـنْ يَرْكَـبُ الْمَطِـيَّ ولَا يَشْـرَبُ كَأْسـاً بِكَـفٍّ مَـنْ بَخِـلَا

يريد أنّ كلّ شارب يشرب بكفّه، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكفّ من بخل. وهو معنى لطيف.

وكقول الخليل بن أحمد العروضى:

إِنَّ الخَلـــيطَ تَصَـــدَّعْ فَطِـــرْ بِـــدَائِكَ أَوْقَـــعْ

لَـــوْلَا جَـــوَارٍ حِسَـــانٌ حُـــورُ الْمَـــدَامِعِ أَرْبَـــعْ

أُمُّ البَنِـــينَ وأَسْـــمَا ءٌ والرَّبَـــابُ وبَـــوْزَعْ

لَقُلْـــتُ لِلرَّاحِـــلِ ارْحَـــلْ ذَا بـــدا لَـــكَ أَوْ دَعْ

وهذا الشعر بين التكلّف رديء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعى، وشعر ابن المقفّع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنّه (كان) أجودهم طبعا وأكثرهم شعرا.ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا «أم البنين» و «بوزع» لكفاه " [1].وقد انقسمت رؤية النقاد أيضًا حول تقسيم ابن قتيبة للشعر ، وقد سبق أن تحدثنا عن أن الدكتور إحسان عباس ذكر التشابه بين الجاحظ وابن قتيبة في كون كل منهما يجعل الجودة مقياسا للشعر ، لكنه رأى أن " الاعتدال عند ابن قتيبة قد بسط ظله على نظرته عامة ، ومن أبين الفروق بينهما اختلافهما في النظرة إلى مشكلة اللفظ والمعنى ، فبينما انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ ، ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية " [2]ويستشف من أمثلة ابن قتيبة

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج١ ،ص٦٥:٧١.

(٢) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٧.

أن المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة " [١] أما الدكتور محمد غنيمي هلال فبعد أن ذكر بشر بن المعتمر وعده ممن يسوون بين اللفظ والمعنى قال :" وممن يسوي بين اللفظ والمعنى كذلك ابن قتيبة ، فخير الشعر عنده ما حسن لفظه وجاد معناه " [٢]وهذا ما لم يره نقاد آخرون فالدكتور مندور يرى أن ابن قتيبة انحاز للفظ واستنبط من تقسيم ابن قتيبة أمرين : أولهما أنه رأى " أن اللفظ في خدمة المعنى ، وأن المعنى الواحد يمكن أن يعبر عنه بألفاظ مختلفة يحلو بعضها ويقصر الآخر ، وثانيهما أنه لابد لكل بيت من الشعر من معنى " [٣]وبعد أن راجع الدكتور الأمثلة التي ذكرها ابن قتيبة ظهر له أنه " يقصد بالمعنى إلى أحد أمرين :

١. فكرة .

٢ . معنى أخلاقي " [٤]ويستدل على ارتباط المعنى بالفكرة عند ابن قتيبة أنه لم يجد طائل معنى في أبيات " ولما قضينا من منى كل حاجة " ، فالأبيات لا تحمل أية فكرة وإنما هي تصوير فني رائع ، استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يدرك جماله فيما بعد ، ويدل على ما فيه من صور أخاذة وخصوصًا الشطر الأخير "وسالت بأعناق المطي الأباطح .." [٥]،ونظرة الدكتور مندور تلك نابعة عن رؤيته النقدية في تلك المرحلة التي فصل فيها كثيرًا في كتابه " النقد المنهجي عند العرب " والتي نجد تلخيصها في كتابه " في الميزان الجديد " حيث يقول: " وليس من شك

(١) محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ١٠٨.

(٢) د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ص٢٥٢ .

(٣) د. محمد مندور :النقد المنهجي عند العرب ص٣٢،٣٣.

(٤) السابق ص٣٤.

(٥) السابق ص٣٤ ،٣٥.

في أن سر الخلود للكثير من عيون الأدب يرجع جانب كبير منه إلى خصائص الصياغة " [١] فالدكتو مندور في تلك المرحلة من حياته النقدية كان ينحاز للفظ على حساب المعنى ، لكن أيضًا ـ الحقيقة أن تقسيم ابن قتيبة وجعله قسما لما جاد معناه وقصر لفظه وبعض الأمثلة التي ذكرها تبين لنا أنه لم يهمل الألفاظ أو يجعلها مجرد خدم للمعنى وتكشف لنا أن الصورة الشعرية التي تشكل المعنى وتزيد من جماله وقوة تأثيره لها أهميتها عنده ، لكن لأنه يسوي بينهما فلا يريد لهذه الصورة أو للألفاظ أن تكون بلا غاية تأثيرية نفسية أو خلقية أوفكرية أو لا يكون فيها من الجدة ما يمتع القارئ ، كما لا يريد للنصوص أن تكون لغاية من الغايات ومفتقدة للجمال الأسلوبي والتصويري الذي يجذب لها وجدان وفكر المتلقي ، هو يريدهما معًا متلاحمين (الجمال الأسلوبي الذي عبر عنه بالألفاظ والغاية أي المعنى) ولعله لا يكون مصيبًا في رؤيته لبعض النصوص مثل قول الشاعر " ولما قضينا من منى كل حاجة " ولعله لم يمعن فيها التأمل ، لكن هذا لا يبرر هذا الهجوم الذي تعرض له ابن قتيبة على يد بعض النقاد المعاصرين ، ومن هؤلاء من جعل منطلقه للهجوم رأي الدكتور مندور في تقسيم ابن قتيبة للشعر ، يقول الدكتور محمد زكي العشماوي " وبدراستنا الشواهد التي تمثل بها لهذا النوع نرى أن ابن قتيبة لا يعتبر الشعر ذا معنى إلا إذا اشتمل على حكمة أو مثل أو فكرة فلسفية أو معنى أخلاقي أما ما عدا هذا من مجرد التصوير لحالة نفسية أو التعبير عن موقف نفسي إنساني فلا يعد عنده معنى ودليلنا على هذا أمثلة القسم الثالث"." [٢]

(١) محمد مندور : في الميزان الجديد ،القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر٢٠٠٤، ص٥٠.

(٢) محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، بيروت : دار النهضة العربية ١٩٧٧، ص٢٨٠ .

لكن ماذا نفعل في أبيات تحمل هذا التعبير عن الموقف الإنساني ؟ يجيب الدكتور العشماوي :" وأغلب الظن أن الذي أعجب ابن قتيبة في قول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملي جزعا إن الذي تحذرين قد وقعا

ليس هو التعبير عن حالة نفسية استطاع الشاعر أن يحققها تحقيقا رائعا في كلماته البسيطة عندما أشاع الإحساس بالجزع على موت صاحبه واللوعة لفراقه.ذلك الفراق الذي ظل يشغل ذهن الشاعر أمدا طويلا ، فهو مشفق على نفسه من تلك اللحظة التي يبلغ فيها القضاء أجله ويختطف فيها الموت صاحبه منه . هذا الترقب المرير الممزوج بالإشفاق والقلق والخوف، والذي أحسن الشاعر التعبير عنه بقوله :" إن الذي تحذرين قد وقعا " نقول ، أغلب الظن أن ابن قتيبة لم يعجب في البيت بهذه المشاعر كلها وإنما الذي أعجبه فيها أنها حملت حقيقة من حقائق النفس ، وهي عجز الإنسان العاجز أمام قوة الموت ، ونسي ما عدا هذا من مجرد التعبير عن معنى الحزن اللاذع الذي يملأ قلب الشاعر لفقدانه صاحبه" [1] .هذا التفسير والتحليل والتوقع لما كان يفكر فيه ابن قتيبة لحظة استشهاده بالبيت بناه الدكتور العشماوي على ظن ؛ فهو كرر مرتين " أغلب الظن " لكننا نراه رغم ذلك يبني على ظنه ذلك ما يراه يقينا لا شك فيه ، يقول الدكتور:" ليس لدينا من شك إذن ، بعد دراسة الشواهد التي تمثل بها ابن قتيبة من أن كلمة المعنى عنده هي الأفكار الفلسفية والخلقية الخاصة أو التصورات الغريبة أو الطرائف النادرة أما مجرد التصوير الفني لحالة نفسية أو شعورية خاصة فليس من المعنى في شيء" [2]فابن قتيبة رغم استشهاده بمثل بيت أوس الذي يحمل زخما من المشاعر النفسية إلا أن

(١) السابق : ص٢٨١.

(٢) د. محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ص ٢٨١.

الذي أعجبه فيها تلك الحكمة ، وعلينا أن نفترض ذلك وأن نضعه في دائرة "أغلب الظن " الذي يصل بنا إلى نتيجة لا تقبل الشك ، لنسأل بعد ذلك : ما الذي أعجب ابن قتيبة في قول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسية بطيء الكواكب

والذي أهمله الدكتور العشماوي ولم يشر إليه ؟

أرى هنا أن أغلب الظن أنه أعجبه إضافة إلى جمال ألفاظه هو قدرة الشاعر على تجسيد مشاعر القلق والحزن والخوف وإذا استعرنا تعبير الدكتور العشماوي فهو " هذا الترقب المرير الممزوج بالإشفاق والقلق والخوف " وإلا فإن البيت لا يحمل معنى فلسفيا ،أو حقيقة من حقائق النفس .

وقد رأى عدد من النقاد أن ابن قتيبة بنظرته تلك قد فصل الشكل عن المضمون ، ومن هؤلاء أيضًا الدكتور العشماوي الذي يقول :"فليس هناك ما هو أكثر تأثرا بالمنطق ، وبالنزعة الإحصائية الحسابية التقريرية من نقد ابن قتيبة للشعر ، حين أخضع الشعر للقسمة الحادة الصارمة بين اللفظ والمعنى معتمدًا الحصر المنطقي طريقًا ومنهجًا ضاربًا عرض الحائط بكل ما حذرنا منه سابقًا " [1]، ولا أجد هنا ردا أبلغ من رد الدكتور عيسى بن على الكاعوب الذي يقول :"وإذا كان غير قليل من الدارسين المعاصرين أخذوا على ابن قتيبة مثل هذا الفصل ، فإننا نرى أنه من غير الإنصاف أن نحاكم السابقين بقوانين عصرنا ، مغفلين عامل الزمان وماله من تأثير في تاريخ الأفكار والمبادئ ، بل يجد المرء نفسه أميل إلى تسجيل تفوق لابن قتيبة في هذه الفكرة لاتجاهه بالنقد العربي من النظرة الجزئية

(١) السابق : ص٢٧٧.

إلى ضرب ما من النظرة الشمولية [١]لقد كان هدف ابن قتيبة أن يكون موضوعيًّا ، وأن يحل تلك الإشكالية التي ظهرت بطريقة تساوي بين قيمة اللفظ وماله من قدرة تأثيرية في عقل ووجدان المتلقي وبين قيمة المعنى أو الرسالة التي يسعى المبدع إلى توصيلها، فليست المعاني مطروحة في الطريق ، بل تتفاضل بما لها من جدة ،وبقدرتها على تحقيق الغاية الإبداعية ، وقد نرى أن الألفاظ قد تتوافر فيها كل ما يضفي عليها التألق والإنسيابية لكننا لا نجد في المعاني تلك الجدة التي تزيد من إحساس المتلقي بروعة النص .

قضية الطبع والتكلف

تحدث ابن قتيبة في أكثر من موطن عن التكلف في الشعر وعن الشعراء المتكلفين ، فقال بعد أن ذكر شعر الخليل " وهذا الشعر بين التكلف رديء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعى، وشعر ابن المقفع، وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه (كان) أجودهم طبعا وأكثرهم شعرا. ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا «أمّ البنين» و «بوزع» لكفاه " [٢]وقال :" والمتكلّف من الشعر وإن كان جيّدا محكما فليس به خفاء على ذوى العلم، لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعانى حاجة إليه، وزيادة ما بالمعانى غنى عنه " [٣]وضرب لذلك مجموعة من الأمثلة وقال أيضًا :" وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن

(١) عيسى بن على الكاعوب : التفكير النقدي عند العرب مدخل إلى نظرية الأدب العربي ، دمشق : دار الفكر، ص١٥٥.

(٢) ابن قتيبة :الشعر والشعراء ص٧١ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٨٩.

لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأنى أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه " [١]هذا هو وصفه للشعر المتكلف ، فبماذا وصف الشعراء المتكلفين ؟ لقد قال : " ومن الشعراء المتكلّف والمطبوع :فالمتكلّف هو الذى قوّم شعره بالثّقاف، ونقّحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة. وكان الأصمعىّ يقول: زهير والحطيئة وأشباههما (من الشعراء) عبيد الشعر، لأنهم نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولىّ المنقح المحكّك" [٢].

وعندما يتحدث عن المطبوعين من الشعراء يقول:" والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى، وأراك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر(*) " [٣]وأقوال ابن قتيبة هذه مثل سابقتها أثارت نقد النقاد المعاصرين ، يقول الأستاذ طه أحمد إبراهيم " والظاهر أن ابن قتيبة يضع الطبع في الشعر بمعنى الارتجال وأن الشعر المطبوع يكاد يكون قاصرًا عنده على المرتجل الذي يقال على البديهة دون إعداد ، فمن أعد الشعر ونقحه كان متكلفًا ، وتلك مجاوزة للواقع وللإنصاف ، فالشعر صناعة ككل الصناعات تحتاج إلى مرانة وإعداد ، وقلما يكون الشعر المرتجل قويًّا رائعا " [٤]والحقيقة أن هذا القول يخالف قول ابن قتيبة عن المطبوع

(١) السابق ص٩٠.

(٢) السابق ص ٧٨.

(*) قال الليث: زَحَرَ يَزْحَرُ زَحِيراً، وهو إخراج النَّفس بأنين عند عمل أو شدة، وكذلك التَّزَحّر (تهذيب اللغة :ج٤ص٢٠٧)

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٩١.

(٤) طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري ص ١٥٦.

من الشعراء ، بل إن الأستاذ طه أحمد إبراهيم قد خالف نفسه فقد قال قبل ذلك الكلام : "ولم يذكر ابن قتيبة أمارات الشعر المطبوع ولكنها تؤخذ ضمنا مما سبق ، ومن كلامه على المطبوعين من الشعراء فالشعر المطبوع هو الذي صدر عن نفس تجد ما تقول ، وانبعث عن سليقة ، ووفق الشاعر فيه إلى الإبانة المصقولة الواضحة . على أن من الصعب تحديد أمارات الشعر المطبوع لأن ميادين الطبع والشعور والجودة فسيحة متنوعة " (١) فهل كل شعر مرتجل توجد فيه تلك السمات التي أشار إليها ابن قتيبة ؟ ولعل الأستاذ طه أحمد إبراهيم استشف مسألة ربط الشعر المطبوع بالشعر المرتجل من استشهادات ابن قتيبة بقصائد مرتجلة والتي منها قصيدة ابن مطير في المطر ولكننا نلاحظ أنه بعد أن أنهى النص يقول :"وهذا الشعر، مع إسراعه فيه كما ترى ، كثير الوشى لطيف المعانى " (٢)وهذا القول ـ مع اختلافنا في الحكم على القصيدة ـ يظهر أنه محل إعجاب وتعجب في آن ، وذلك لأن القصيدة إذا جاءت مع السرعة فإنها غالبا ما تفقد مثل هاتين السمتين اللتين هما من سمات الشعر المطبوع ـ مع ملاحظة أن ذلك لم يكن في العصر الجاهلي الذي كانت أكثر قصائده ارتجالا ـ ثم إن ابن قتيبة يصف بعض الشعراء بجودة الطبع في أغراض بعينها وخيانة الطبع لهم في أغراض أخرى مثل ذي الرمة الذي هو "أحسن الناس تشبيها، وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع " (٣)ولم يقل لنا ابن قتيبة ولا غيره أنهم كانوا يرتجلون الأغراض التي أحسنوا فيها ، بينما كانوا ينقحون الأغراض التي تخلفوا فيها ويعدونها إعدادًا ، وهذا لا يمنع أن ابن قتيبة

(١) السابق ص ١٥٦.

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٩٣.

(٣) ابن قتيبة :الشعر والشعراء ٩٥.

كان يزيد إعجابه بالشعر المرتجل إذا وجد فيه السمات التي ذكرها في الشعر المطبوع . أخطأ في نقده التطبيقي أو أصاب . وكان يرى أن الشاعر المطبوع إذا امتحن . نلاحظ هنا الشرط . إذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر، لكن ما كان الشعر المطبوع عنده قاصرًا على الشعر المرتجل . وقد وافق الدكتور مندور الأستاذ أحمد طه إبراهيم في رأيه ، فقد قال : " نلاحظ أن ابن قتيبة قد خلط في كل قسم من القسمين اللذين يرد الشعر إليهما بين أمرين مختلفين كل الاختلاف :

١. بين التكلف وبين تقويم الشعر وتثقيفه بطول التفتيش وإعادة النظر بعد النظر كما كان يفعل زهير والحطيئة .

٢. بين الطبع والاتجال حتى لكأنه يظن أن الشعر المطبوع هو الشعر المرتجل ، وفي الأمثلة التي يوردها ما يدل على ذلك " [(١)]، وهذا الفهم لكلام ابن قتيبة اتخذه عدد غير قليل من النقاد الذين عبروا بتعبيرات لا تختلف كثيرا عن تعبيرات الأستاذ أحمد طه إبراهيم والدكتور مندور ، فمثلا يقول الدكتور محمد زغلول سلام : " ونستشف من هذه العبارة عدم فصله بين التكلف والصنعة، وكأنه يجاري الأصمعي في القول بقبح التكلف ويعتبر زهير والحطيئة من المتكلفين ، ولكن النظر الأصح إليهما يعتبرهما من الصانعين المثقفين ، ففرق بعيد بين الصنعة والتكلف ، إذ في الصنعة قدرة وحنكة وجمال وفي التكلف قصور وعدم اكتمال وقبح " [(٢)] لكننا لم نعدم من النقاد من يرفض وجهة النظر تلك ، فهذا هو الدكتور محمد على أبو حمدة في كتابه يقول :" إن مصطلح التكلف في الشعر عند ابن قتيبة غير الذي فهمه الدكتور مندور وطول فيه وعرض .... فالتكلف في هذه القرينة هو طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين أو بكلام آخر مغالبة الطبع وكد القريحة ، ومع

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ص٣٩.

(٢) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري ص ١٤٠.

ذلك يبقى التكلف حسب مفهوم ابن قتيبة عند زهير والحطيئة والفرزدق في دائرة الشعر الجيد المحكم . أما التكلف الذي فهمه الدكتور مندور وأطال في شرحه فهو البهرج المرذول والتصنع المعيب الفاسد ، وهذا ليس شعرا أصلا ، ولم يدخل في عداد الشعر عند ابن قتيبة في سائر الأشعار التي اختارها وأثبتها في كتاب الشعر والشعراء " [1]وكلام الدكتور (أبو حمدة)كلام يستند إلى أسس منطقية وقراءة فاحصة لكتاب الشعر والشعراء ، لكن الحقيقة أنني أظن أن الدكتور إحسان عباس كان أكثر النقاد الذين قرأوا قول ابن قتيبة بعناية ووعي شديدين لذلك أبدع في الكشف عما يمكن أن نقول إنه أمر محير في رأي ابن قتيبة ، فقد لاحظ الدكتور إحسان أن هناك فرقًا عند ابن قتيبة بين وصف الشعر بأنه متكلَّف (بفتح اللام) ووصف الشاعر بأنه متكلِّف (بكسر اللام) وعزا هذا الفرق إلى قلة المصطلح النقدي في عصر ابن قتيبة ، يقول الدكتور إحسان :" وقد خفي على الدارسين المحدثين أن قلة " المصطلح النقدي " لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل اللفظتين بمدلولات مختلفة، فالتكلف حين يكون وصفاً للشاعر مختلف عن " التكلف " حين يكون وصفاً للشعر، تقول شاعر " متكلف " – بكسر اللام – وتعني ما نعنيه حين نقول إنه " صانع " ولهذا يقول ابن قتيبة: " فالمتكلف (من الشعراء) هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة؟ " . ولا نظن أن أبن قتيبة يسترذل شعر زهير والحطيئة أو يراهما دون من يسميهم " الشعراء المطبوعين .....فإذا قلت " شعر متكلف " – بفتح اللام المشددة – عنيت ظهور " التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني إليه حاجة وزيادة ما بالمعاني غنى عنه " ، وهذا يقابل ما

(١) محمد على أبو حمدة : في العبور الحضاري لكتاب النقد المنهجي عند العرب ، عمان : دار عمار ٢٠٠٩،ص١٥٥.

نسميه " رداءة الصنعة " وليس كذلك شعر المنقحين أمثال زهير والحطيئة، على أن بعض المتكلف من الشعر قد يكون جيداً محكماً – في رأي أبن قتيبة –" [1] استشف أيضا الدكتور إحسان من كلام ابن قتيبة أمرا مهما ، فابن قتيبة يذكر سمة أخرى من سمات التكلف " وتلك السمة " أن ترى البيت مقروناً بغير جاره ومضموماً إلى غير لفقه " وهذا مقياس هام لأنه أول الطريق إلى الوحدة الكلية في القصيدة عامة، وفقدان " القران " بين الأبيات ليس من صفات شعر المنقحين، ومن ثم يتضح لنا تماماً أن لفظة المتكلف إذا اقترنت بالشاعر عنت شيئاً متميزاً عن معناها حين يوصف بها نوع من الشعر " [2]ولا شك أن ملاحظات الدكتور إحسان في غاية الدقة وهي تكشف عما كان يعد غامضًا أو متناقضًا في أقوال ابن قتيبة ، كما تكشف عن بعض من تطور رؤى ابن قتيبة .

ابن قتيبة والرؤية النفسية

نظر ابن قتيبة إلى الدوافع النفسية التي تبعث على كتابة الشعر والربط بين جودة الشعر وبين قوة تلك الدوافع وسيطرتها على النفس فقال: "وللشعر دواع تحث البطيء، وتبعث المتكلف منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشراب، ومنها الطرب ومنها الغضب" [3].ورؤيته تلك نبعت عن ملاحظته لأقوال بعض الشعراء التي تشرح دوافعهم وأحوالهم النفسية التي يتفجر من معينها تيارات الإبداع وعلى أساسها تتحقق الجودة كما يعتقدون، فقد " قيل للحطيئة: أي الناس أشعر؟ فأخرج لسانًا دقيقاً كأنه حية، فقال: هذا إذا طمع. وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد ، يعني كاتب البرامكة ، أشعر

(١) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٩.

(٢) السابق : ص ١١٠.

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٧٩.

من مراثيك فيه وأجود؟ فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد" (١)

ومن هذا المنطلق النفسي وجه ابن قتيبة نقده لشعر الكميت، محاولاً تفسير تلك الظاهرة الغريبة التي تتمثل في قوة شعره في مدح الأمويين رغم أنه شيعي الهوى، فقال: "وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة " (٢).

فالإبداع إذن يقوى بقوة المحرك النفسي ويضعف بضعفه، يقول الدكتور إحسان عباس :" وهنا يعود بنا التذكر إلى أن الأصمعي عندما علل التفاوت في شعر حسان نسب ذلك إلى الموضوع، ولما عرض له ابن سلام نسب ذلك إلى اختلاف القائلين (أي الانتحال)، أما ابن قتيبة فإنه ذهب إلى التعليل النفسي في ذلك، ولعله كان في هذا أدق فهماً للطبيعة الإنسانية من صاحبيه، فالشاعر الذي يقول بحافز الرجاء والوفاء، يعتمد التفاوت في شعره على تفاوت قوة الحافزين لديه " (٣) وابن قتيبة لا يكتفي بذلك، بل يعرض للأجواء التي ينطلق في ظلالها الإبداع، والتي تهيئ نفسية المبدع وتؤهلها للحظات التي تتلاقح فيها الأفكار والمشاعر.

" وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب (فيها) ريّضه.وكذلك الكلام المنثور فى الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى

(١) السابق ص٧٩.

(٢) السابق ص ٨٠ .

(٣) د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص١١١.

البليغ الخطيب. ولا يعرف لذلك سبب ، إلّا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غم وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميم (عند تميم) ، وربما أتت علىّ ساعة ونزع ضرس أسهل علىّ من قول بيت.وللشعر أوقات يسرع فيها أتيّه، ويسمح (فيها) أبيّه. منها أوّل الليل قبل تغشّى الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير.ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب ". [١]

ولم يكن ابن قتيبة هو أول من تحدث عن الأوقات ، فقد تحدث بشر ابن المعتمر عن الأوقات التي تتهيأ فيها نفس الأديب فقال :" خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطاء". [٢]

وقد رفض الدكتور مندور رأي ابن قتيبة في الانفعالات النفسية ودورها في تهيئة النفس للشعر فقال " ولإيضاح ما في النص من خلط يجب أن ننظر في حقيقة الخلق الأدبي ومراحله وضروبه والثابت أن الشراب والطرب والغضب والطمع وكافة المشاعر والانفعالات لا تخلق شعرًا ساعة احتدامها فالانفعال القوي يعقد اللسان، ويشل الفكر ويشغلنا عما عداه .فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من الشراب ويهدأ بعد الغضب ، إذ تصفو عندئذ قريحته ويستطيع الخلق وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور كامنة وإذن فهو لا يقول إلا عن روية." [٣] ويمكن الرد على ذلك بأن ابن قتيبة لم يتحدث عن تلك الدوافع من

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٨٢،٨١.

(٢) الجاحظ : البيان والتبين ، القاهرة : مكتبة الخانجي ط٧ ١٩٩٨ ج١ ص١٣٥ .

(٣) د. محمد مندور :النقد المنهجي عند العرب ص ٣٨.

نفسه بل أخذها من أقوال شعراء عايشوا هذه الحالات وتحدثوا عنها ، " قال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهيّة: هل تقول الآن شعرا؟

فقال: (كيف أقول وأنا) ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه .

وقيل للشّنفرى حين أسر: أنشد، فقال: الإنشاد على حين المسرّة ، ثم قال:

فــلا تــدفنونى إنّ دفنــى محــرّم عليكم ولكن خامرى أمّ عامر

إذا حملوا رأسى وفى الرأس أكثرى وغودر عند الملتقى ثمّ سائرى

هنالــك لا أرجــو حيــاة تســرّنى سمير الليالي مبسلا بالجرائر " [1]

وذكر أن نقادًا سبقوا ابن قتيبة تحدثوا عن أثر هذه الدوافع ، واختلاف درجة هذه الدوافع بين الشعراء وبروز ذلك في نصوصهم ، "حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة: كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب[*]، وزاد قوم: وجرير إذا غضب.

وقيل لكثير . أو لنصيب .: من أشعر العرب؟ فقال: امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب" [2] ، ثم هناك أمر في غاية الأهمية وهو أن ابن قتيبة يتحدث عن أمة " أكثر أدبها ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال " [3] يقول الجاحظ :" وكلّ شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام،

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص٨١،٨٠ .

(*) رجُل كَلِبٌ، وَقد كَلِبَ كَلَباً إِذا اشتدَّ حِرْصُه على طلب شيءٍ (تهذيب اللغة : ج١٠ص١٤٤)

(٢) ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر ، دار الجيل ١٩٨١،ج١،ص٩٥.

(٣) عبد الله عبد الجبار – محمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب في الحجاز ، القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، ص٢٤٧.

وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيّده على نفسه، ولا يدرسه أحدا من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل " [1]وقد أفرد ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة بابا للبديهة والارتجال وعرف الارتجال بأنه " ما كان انهماراً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله " [2] ثم ضرب أمثلة له ، بل رأى أن من الشعراء المحدثين من كان سمته الارتجال مثل أبي نواس الذي كان "قوي البديهة والارتجال، لا يكاد ينقطع ولا يروي إلا فلتة " [3] " وكان أبو العتاهية ـ فيما يقال ـ أقدر الناس على ارتجال وبديهة؛ لقرب مأخذه،وسهولة طريقته ". [4]

ثم يقول : "ومن الشعراء من شعره في رويته وبديهته سواء عند الأمن والخوف؛ لقدرته، وسكون جأشه وقوة غريزته: كهدبة بن الخشرم العذري، وطرفة بن العبد البكري، ومرة بن محكان السعدي " [5] ويذكر ابن رشيق بعضا من القصائد والأبيات المرتجلة التي هي من عيون الشعر العربي والتي اتسمت بتماسك الأسلوب

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ص٢٨.
(٢) ابن رشيق : العمدة :ج١ص١٨٩.
(٣) ابن رشيق : العمدة :ج١ص١٩٠.
(٤) السابق ج ١ ص ١٩١.
(٥) السابق ج ١ ص ١٩٣.

ودقة التصوير وعمق التعبير عن العاطفة التي انهمرت في من معينها تلك النصوص ، مثل قصيدة عبد يغوث التي قالها في أقسى اللحظات وهو مقبل على القتل فهو لم ينتظر حتى " تصفو قريحته ويستطيع الخلق وقد استقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور " . على حد تعبير الدكتور مندور . بل قالها وهو في ذروة انفعاله وتأجج عاطفته ، وقد روت لنا كتب الأدب الكثير من القصائد أو الأبيات التي قيلت ارتجالا وفي نفس الوقت كانت غنية بصورها وأفكارها وجودة أسلوبها وصدق عاطفتها ، فهل بعد ذلك يكون من حقنا أن نقرر في حسم أن "كافة المشاعر لا تخلق شعرًا ساعة احتدامها فالانفعال القوي يعقد اللسان، ويشل الفكر ويشغلنا عما عداه " ؟ . كما يقول الدكتور مندور. أو أن قوة الموهبة قد يتجاوز نطاق فرضياتنا التي نعمم بها دون استقصاء لاحتمالية وجود ما يخالفها .

وفي الختام نرى أن شخصية ابن قتيبة التي اعتادت على البحث والتفكير من أجل تشكيل رؤية شاملة ومقنعة لم تغادره في تدوين رؤيته النقدية ؛فالطموح الفكري الذي لا يقنع بالتكرار أو الوقوف عند الجزئيات أبى عليه أن يصبح أسيرا لتلك الحدود الضيقة للنقد في زمانه ،وهذا الفكر النقدي المختلف عن غيره في ذلك الزمان أثار العديد من النقاد في عصرنا الحديث ، ودفعهم إلى الوقوف عنده ومن ثم رأينا قراءات متعددة بعضها يتفق معه وبعضها يختلف وبعضها لا يتجاوز العرض إلا إلى محاولة للشرح والتحليل كل حسب منهجه وقناعته النقدية ، وبعض هذه القراءات كان تقليدًا أو تأثرًا بآراء أخرى دون مساءلة متأنية وقراءة فاحصة للنص وللتاريخ بينما كانت هناك قراءات استطاعت أن تكشف لنا بوعي عن جوانب كانت تحتاج إلى تفسير ،وأضاءت لنا . من خلال إدراكها للجوانب المعرفية والفكرية التي تولد عنها نقد ابن قتية . أبعادًا كان يمكن أن تظل مجهولة ، والحقيقة أنني في هذا البحث تعرضت إلى بعض آراء نقادنا في العصر الحديث ، والتي أظن أنها

تناولت أكثر الجوانب أهمية في الفكر النقدي لابن قتيبة وحاولت مناقشتها في أضواء الرؤى النقدية والتاريخية . والله المستعان .

المصادر والمراجع

* ابن تيمة مجموع فتاوى ، مكة :مطبعة الحكومة ١٣٨٩هـ.
* ابن خلكان : وفيات الأعيان ، بيروت : دار صادر ١٩٩٤م.
* ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر ، دار الجيل ١٩٨١.
* ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، القاهرة : دار الحديث ١٤٢٣هـ.
* ابن كثير : البداية والنهاية ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ١٩٨٨م.
* ابن النديم : الفهرست ، بيروت :دار المعرفة ١٩٩٧م.
* أبو منصور الأزهري : تهذيب اللغة ، بيروت : دار إحياء التراث ٢٠٠١م.
* د إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، بيروت : دار الثقافة ط٤.
* الجاحظ : البيان والتبين ، بيروت : دار ومكتبة الهلال.
* طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عن العرب من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري ، مكة المكرمة : الفيصلية.
* عبد الله عبد الجبار – محمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب في الحجاز القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية.
* د.عيسى بن على الكاعوب : التفكير النقدي عند العرب مدخل إلى نظرية الأدب العربي ، دمشق : دار الفكر.
* فاروق العمراني : تطور النظرية النقدية عند محمد مندور : طرابلس الدار العربية للكتاب ١٩٨٨م.
* د. محمد زغلول سلام : تاريخ النقد والبلاغة حتى القرن الرابع الهجري الإسكندرية :منشأة المعارف ١٩٨٢م.

* د.محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، بيروت : دار النهضة العربية .

* د.محمد على أبو حمدة : في العبور الحضاري لكتاب النقد المنهجي عند العرب ، عمان : دار عمار ٢٠٠٩م.

* د. محمد عنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، القاهرة : نهضة مصر ١٩٩٧م.

* د.محمد مندور : في الميزان الجديد ،القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر١٩٧٣م

* د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م.